نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس الثالث

عناصر المحاضرة:

❶ محبة النبي أصل عظيم من أصول الدين.

❷ إحاطة رعاية الله بنبيه ﷺ كفالته ﷺ وحضانته.

❸ إظهار كمال خلق نبينا ﷺ شهوده ﷺ حرب الفِجَار، شهوده ﷺ حلف الفضول.

❹سفر النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مرة ثانية إلى الشام.

❺زواجه ﷺ من خديجة رضي الله عنها ومناقبها.

❻فقه الحكمة من موت أولاد النبي ﷺ الذكور وهم اطفال صغار.

❼مشاركة النبي ﷺ في بناء الكعبة الشريفة.

❽مكانة النبيُّ ﷺ في قومه.

محبة النبي أصل عظيم من أصول الدين:

إن مقام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عظيم، وإنّ محبتَه ليست كمحبة أي شخص كائناً من كان، ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كمّله ربه الكمال البشري؛ واصطفاه لختم الرسالات؛ وبعثه للناس كافة بالرحمة والهداية، فمحبة النبي صلى الله عليه وسلم عبادةٌ عظيمةٌ؛ نتعبد بها لله عز وجل؛ وقربةٌ نتقرب بها إلى الله، فهي أصل عظيم من أصول الدين؛ ودِعامة أساسية من دعائم الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: 6]، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حتَّى أكُونَ أَحَبَّ إلَيْهِ مِن والِدِهِ ووَلَدِهِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ) [رواه البخاري].

وفي الصحيح أيضاً أن عمر - رضي الله عنه - قال: يا رَسولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أحَبُّ إلَيَّ مِن كُلِّ شيءٍ إلَّا مِن نَفْسِي، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لَا، والذي نَفْسِي بيَدِهِ، حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْكَ مِن نَفْسِكَ فَقالَ له عُمَرُ: فإنَّه الآنَ، واللَّهِ، لَأَنْتَ أحَبُّ إلَيَّ مِن نَفْسِي، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: الآنَ يا عُمَرُ)بخاري ، إذن محبة النبي صلى الله عليه وسلم من الواجبات العظام على كل مسلم؛ وهي من صميم الإيمان؛ ولابد لهذا الحب أن يكون أقوى من أي حبٍّ لأي مخلوق؛ حتى من حبِّ المرء لنفسه.

كيف لا يكونُ صلى الله عليه وسلم أحبَّ الخلق إلينا وهو أحبُّ الخلق إلى الله تعالى؛ فقد اتخذه الله خليلا؛ وأثنى عليه ما لم يثن على غيره من الخلق جميعا، كيف لا يكونُ صلى الله عليه وسلم أحبَّ الخلق إلينا؛ وحبُّه من أصول إيماننا بربنا.

يا خير من دُفنت بالقاع أعظمه*** فطاب من طيبهنَّ القاع والأَكَمُ

أنت النبي الذي ترجى شفاعته*** عند الصراط إذا ما زلت القدم

أنت البشير النذير المستضاء به ***وشافع الخلق إذ يغشاهم الندم

إحاطة رعاية الله بنبيه ﷺ كفالته ﷺ وحضانته:

وُلد الرسول ﷺ بمكة يتيم الأب، فقد توفي أبوه عبد الله وهو في بطن أمه، وعندما مات والده كفله جده عبد المطلب، وحضنته أمه، ومولاته أم أيمن بركة الحبشية. وعندما بلغ ﷺ من العمر ست سنين توفيت والدته (آمنة) بالأبواء، وهي راجعة به من المدينة إلى مكة، بعد زيارة قامت بها معه إلى أخوال جده عبد المطلب من بني النجار، وكان ﷺ يزور قبر أمه بعد بعثته، كما زارها عام صلح الحديبية.

✉ولما توفيت آمنة أم النبي ﷺ، ودُفنت بالأبواء، رجعت أم أيمن بالنبي ﷺ إلى مكة، فضمه وكفله ورعاه جده عبد المطلب، ورق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده.

✉وكان عبد المطلب يُقربه منه، ويدنيه إليه، ويجلسه معه على بساطه في حجر الكعبة، ويدخل عليه إذا خلا، وإذا نام، ولا يأكل طعاماً إلا قال: عليّ بابني، فيؤتى به ﷺ إليه.

✉ولما بلغ الرسول ﷺ من العمر ثمان سنوات، توفي جده عبد المطلب، بعد أن أوصى ولده أبا طالب بكفالة النبي ﷺ، وحفظه ورعايته، وذلك لأن عبد الله والد الرسول ﷺ وأبا طالب أخوان لأب وأم، أمهما فاطمة بنت عمرو.

✉فقام أبو طالب عم النبي ﷺ بحق ابن أخيه خير قيام، وضمه إلى ولده، وقدمه عليهم، وكان يحبه حباً شديداً، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، وإذا خرج خرج معه، وسافر النبي ﷺ مع عمه أبي طالب إلى الشام في أشياخ من قريش للتجارة.

✉يجب أن نعامِل الله تعالى في كل نقص حصل باسمه الجبار أن يجبر لك هذا النقص، فإذا التجأنا إليه وسألناه باسمه الجبار أن يجبر لنا النقص، سنرى الجبر فوق ما نتصور من عطاء! وبِمَنِّه وكرمه سبحانه وتعالى وبِلطفه ورحمته ورأفته يُوصل للعباد الرحمات ويَجبر لهم الكسور بألطف ما يكون.

❁هل أحد تخيل أن يتيم، يفقد كل يد حانية وقلب دافئ أحبه في صغره، فعوضه الله بعباد لا يعلم عددهم إلا الله أن يحبوه، ويوقروه، ويتقربوا إلى الله بحبه، ويرفع ذكره في السماء وفي قلوب الناس إلى يوم القيامة، فقد اثنان أو ثلاث فجاءه ما يدهش الخيال من عدد المحبين هكذا هو العوض من الله.

❁المهم أن تُوحّدي الله تعالى في طلب جَبر كسرك، يعني ما تطلبي جبر الكسر إلا من الله، كل عسير ما تطلبي تيسيره إلا من الله.

❁ يجب أن نعتقد أن كل كسر قربنا من الله، هو قمة الجبر، ونعلم أننا إذا انكسرنا ولجأنا لله، فلن يُرجِعَنا خائبين حاشاه سبحانه، قد يؤخر الله الجبر لحكمة يعلمها، لكنه لن يرجعنا !!الجبّار يجبر قلوب عباده، يمدّهم بمراهم الصحة وضمادات السعادة، ومسكّنات الأوجاع، ومضادّات الهموم، قد يكون علم يشغلك عن آلآم، أو حفظ للقرآن، أو المشي في قضاء حاجات الضعفاء، ... وهكذا صور مختلفة، أرضي بجبره وهو سيرضيك.❁

✉وكان أبوطالب لا مال له، فلما عاد رسول الله ﷺ من تلك الرحلة، بدأ سعيه في طلب الرزق، وقد اشتغل ﷺ في صباه برعي الغنم، ورعاها لبعض أهل مكة على قراريط، وبذلك ضرب مثلاً عالياً من صغره في اكتساب الرزق بالكد والتعب.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ» فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ» أخرجه البخاري.

✉والحكمة من رعي الغنم قبل النبوة: التمرن برعيها على رعاية الأمة، ففي مخالطة الغنم تدريب على الصبر والتحمل، والحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها وتفريقها، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره، وعلموا اختلاف طباعها، وأنواع حاجاتها، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فرفقوا بضعيفها، وجبروا كسيرها، وأحسنوا معاملتها.

✉وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من غيرها، ومع كثرة تفرقها فهي أسهل انقياداً من غيرها من الإبل والبقر.

⇦وظل أبو طالب يحوط ابن أخيه ويرعاه، ويدافع عنه أكثر من أربعين سنة.

✉إظهار كمال خلق نبينا ﷺ

🗐شهوده ﷺ حرب الفِجَـار :

لما بلغ ﷺ خمسة عشر عاماً أو تزيد، هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة، وبين قيس وأحلافها، وكان الظفر في أول النهار لقيس على قريش، حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لقريش وكنانة على قيس.

وقد شهد الرسول ﷺ بعض أيامه، وكان ينبل ويجهز النبل لعمومته أثناء القتال، وفي هذا إشارة إلى شجاعته وفروسيته منذ صغره.

أما عن تسمية حرب الفجار بذلك فهو يرجع الى: ❶الفجور في القتال وكثرة عدد القتلى وانتهاك المحرمات.❷قتال القبائل في الاشهر الحرم وهذا فجور ومحرم عند العرب في الجاهلية.

🗐شهوده ﷺ حلف الفضول:

وكان هذا الحلف في ذي القعدة، في شهر حرام بعد حرب الفجار بشهر أو أكثر، وكان أعظم حلف سمعت به العرب، وسببه أن رجلاً من (زبيد) باليمن قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وأبى أن يعطيه حقه، فاستدعى عليه الأحلاف عبد الدار ومخزوماً وسهماً، فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل، وانتهروه، فلما رأى الزبيدي الشر، صعد على جبل أبي قيس عند طلوع الشمس، وقريش عند الكعبة، وصرخ بظلامته قائلا :يا آل فهر لمظلوم بضاعته ومحرم أشعث لم يقض عمرته، إن الحرام لمن ماتت كرامته ببطن مكة نائي الدار والنفر يا للرجال وبين الحِجر والحَجر ولا حرام لثوب الفاجر الغدر فقام الزبير بن عبد المطلب، عم النبي ﷺ، وقال: ما لهذا متروك، فاجتمعت بنو هاشم وزهرة، وبنو تيم بن مرة، في دار عبد الله بن جدعان، وتعاقدوا، وتعاهدوا، وتحالفوا بالله، ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم، حتى يُرد إليه حقه.

فسمَّت قريش هذا الحلف (حلف الفضول)، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، ثم مشو إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة (الزبيدي)، ودفعوها إليه، وقد شهد رسول الله ﷺ هذا الحلف.

عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «شَهِدْتُ حِلْفَ المُطَيَّبِينَ مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلَامٌ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنِّي أَنْكُثُهُ» أخرجه أحمد.

وفي هذا إشارة إلى كمال رجولته ﷺ، وحبه للفضائل والمكارم منذ صغره، وتهيئة الناس لقبول ما جاء به.

وهذا الحلف يُعد من أعظم مفاخر العرب، فقد رفعوا به منار العدل، وهدموا به صرح الظلم.

سفر النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مرة ثانية إلى الشام:

لمَّا بلغَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خَمسًا وعِشرين سنةً وليس له بمكَّةَ اسمٌ إلا "الأمينُ"؛ لِمَا تكامَلَ فيه من خِصال الخير، قال له عمُّه أبو طالِبٍ: "يا ابنَ أخي، أنا رجلٌ لا مالَ لي، وقد اشتَدَّ الزَّمانُ علينا، وألَحَّت علينا سِنونَ مُنكَرةٌ، وليس لنا مادَّةٌ ولا تجارةٌ، وهذه عيرُ قومِك قد حَضَرَ خروجُها إلى الشامِ، وخديجةُ بِنتُ خوَيلِدٍ تبعَثُ رِجالًا من قومِك في عيرانِها، فيتَّجِرون لها في مالِها، ويُصيبون مَنافِعَ، فلو جِئتَها فوَضَعْتَ نفسَك عليها لأسرَعَت إليك، وفَضَّلَتْكَ على غيرِك، لِمَا يبلُغُها عنك من طهارَتِك، وإن كنتُ لَأكرَهُ أن تأتيَ الشامَ، وأخافُ عليك من يهودَ، ولكن لا نَجِدُ من ذلك بُدًّا."الدرر السنية

كانتْ خديجةُ بِنتُ خوَيلِدٍ امرأةً تاجرةً ذاتَ شرفٍ ومالٍ كثيرٍ وتجارةٍ تبعَثُ بها إلى الشَّامِ، فتكونُ عِيرُها كعامَّةِ عِيرِ قُرَيشٍ، وكانت تستأجِرُ الرِّجالَ وتدفَعُ إليهمُ المالَ مُضاربةً، وبلغ خَديجةَ ما كان من صِدقِ حديثِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعِظَمِ أمانَتِه، وكرمِ أخلاقِه، فأرسلَتْه في تجارَتِها، فخَرَج مع غُلامِها مَيسَرةَ حتى قدِمَ الشامَ، وجعل عُمومَتُه يوصون به أهلَ العيرِ حتى قدِمَ الشامَ، فنَزَلَا في سوقِ بُصرَى في ظلِّ شجرةٍ قريبًا من صَومعةِ راهِبٍ يُقال له: نِسْطُورَا، فاطَّلَع الرَّاهبُ إلى مَيسَرةَ - وكان يعرِفُه-؛ فقال: "يا مَيسَرةُ، مَن هذا الذي نزَل تحتَ هذه الشجرةِ؟"، فقال مَيسَرةُ: "رجلٌ من قريش من أهلِ الحرمِ". فقال له الرَّاهبُ: "ما نَزَل تحتَ هذه الشجرةِ إلا نبيٌّ." الدرر السنية

ثم باع رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سِلعتَه -يعني: تِجارَتَه- التي خَرَج بها، واشترى ما أراد أن يشتريَ، ثم أقبل قافِلًا إلى مكةَ ومعه مَيسَرةُ؛ فلما قدِمَ مكةَ على خديجةَ بمالِها باعت ما جاء به

بأضعَفَ أو قريبًا، وحدَّثها مَيسَرةُ عن قَولِ الراهبِ، وما رَأى من شأنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فعَرَضَت نَفسَها عليه رَضي اللهُ عنها، وكانتْ أوسَطَ نساءِ قُريشٍ نَسَبًا وأعظمَهُنَّ شَرَفًا، وأكثَرَهُنَّ مالًا، فلمَّا قالت ذلك لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذَكَر ذلك لأعمامِه، فخرج معه عمُّه حمزةُ حتى دَخَل على خويلِدِ بنِ أسَدٍ فخَطَبها إليه، فتزوَّجها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكانتْ أوَّلَ امرأةٍ تزوَّجَها، ولم يتزوَّج عليها غيرَها حتى ماتت رَضي اللهُ عنها. الدرر السنية

✉وكانت خديجة رضي الله عنها قد تزوجت قبل الرسول ﷺ برجلين :أولهما: عتيق بن عائذ، وولدت له (عبد الله، وهند). والثاني: هند بن مالك، ولدت له هالة وهنداً من الذكور، وزينب، ثم مات. السيرة النبوية بين المعرفة والواجب في ضـــوء القــرآن والســـنة

✍ثم بنى رسول الله ﷺ بخديجة، وأولم عليها، ونحر جزوراً أو جزورين، وأطعم الناس.

✍وكان عمر النبي ﷺ حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة، وقد تزوجها بعد رجوعه من الشام، وكان عمرها رضي الله عنها حينئذ أربعين سنة.

✍وقد عُرفت خديجة في الجاهلية بالعفيفة الطاهرة، وعرف محمد ﷺ بالصادق الأمين، فأراد الله عز وجل أن يكون أول بيت بني في النبوة بين الطاهرة العفيفة، والصادق الأمين، ويُرزق منها الذرية دون غيرها، ما عدا مارية القبطية أم إبراهيم ابن النبي ﷺ.

✉وكان النبي ﷺ يحب زوجه خديجة رضي الله عنها، ويثني عليها لما هي عليه من مكارم الأخلاق، لأنها التي واسته ﷺ بنفسها ومالها، وهي أول من آمن به من النساء، وأول من صلى خلفه، وأول من بذلت نفسها ومالها في سبيل الله، وأول من جاءها سلام من الله مع جبريل.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ» متفق عليه. ⇦- يبين ﷺ أنها خير نساء الدنيا، تحت السماء، وفوق الأرض، خيرهن خديجة -رضي الله عنها-. (محمد صالح المنجد).

وقد أخرج النسائي بإسناد صحيح، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-مرفوعاً: «أفضل نساء أهل الجنة؛ خديجة -رضي الله عنها-بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون» [وصححه الألباني في صحيح الجامع: 1135].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا غِرْتُ عَلَى امرأةٍ مَا غِرْتُ على خديجةٍ، وَلَقَدْ هَلَكَتْ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي بِثَلَاثِ سِنِينَ، لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، وَلَقَدْ أَمَرَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ فِي الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ ثُمَّ يُهْدِيهَا إِلَى خَلَائِلِهَا». أخرجه مسلم. ⇦-ولا شك أن كثرة ذكر الرجل للمرأة يدل على كثرة المحبة، ولذلك كان ﷺ يكثر من ذكر خديجة، لكثرة محبته لها، يمدحها، ويثني عليها، ويذكر أياديها البيضاء، وسالف أيامه الجميلة، مع تلك الزوجة الوفية-.(محمد صالح المنجد).

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْكَ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لاصَخَبٌ فِيهِ وَلا نَصَبٌ. متفق عليه .

فلخديجة -رضي الله عنها-من الاستواء ما ليس لغيرها، إذ كانت حريصة على إرضائه، بكل ممكن ﷺ، ولم يصدر منها قط ما يغضبه، كما وقع من غيرها، فغيرها أغضبنه، أما هي فلم تغضب زوجها أبداً، ولم يُنقل أنها أغضبته ﷺ في شيء، ولذلك أعد الله لها بيتا "من قصب، لا نصب فيه" فمثلما أنها ما أتعبت زوجها أبداً في الدنيا، وما كدرت خاطره، وما شقت عليه؛ كان الجزاء من جنس العمل. (محمد صالح المنجد).

ولماذا قال: "بيت" ولم يقل: "قصب" فقط؟ أيضاً من المناسبات: أنها كانت أول ربة بيت في الإسلام، لم يكن على وجه الأرض عندما بعث محمد ﷺ بيت إسلام إلا بيت هذه المرأة، وهذه فضيلة لم يشاركها فيها غيرها، وجزاء الفعل يذكر غالباً من جنسه. (محمد صالح المنجد).

وأي شرف أعظم أن امرأة أو شخصا، يقال له: إن ربك يقرأ عليك السلام؟ "فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي" وقد قال جبريل للنبي ﷺ: "إن الله يقرئ خديجة -رضي الله عنها-السلام" فقالت جواباً: "إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته".

من كرامة خديجة -رضي الله عنها-عند زوجها على النبي ﷺ أن: (اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، أُخْتُ خَدِيجَةَ، علَى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ فَارْتَاعَ لذلكَ، فَقالَ: اللَّهُمَّ هَالَةَ. قالَتْ: فَغِرْتُ، فَقُلْتُ: ما تَذْكُرُ مِن عَجُوزٍ مِن عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ، هَلَكَتْ في الدَّهْرِ، قدْ أبْدَلَكَ اللَّهُ خَيْرًا منها) صحيح البخاري ⇦أيَّ شيءٍ تذكُرُ مِن عجوزٍ مِن عجائزِ قُرَيشٍ حمراءِ "الشِّدقينِ"، والشِّدقُ جانبُ الفمِ، وتقصِدُ: سقوطَ الأسنانِ مِن الكِبَرِ، فلم يبقَ بشِدْقَيها بياضٌ إلَّا حمرةُ اللِّثات، هلكَتْ في الدَّهرِ، قد أبدَلك اللهُ خيرًا منها، أي: قد أبدَلك اللهُ بكبيرةِ السِّنِّ حديثةَ السِّنِّ. الدرر السنية

يعني: اللهم اجعلها هالة! لتكن هالة، هذه التي أتت لتكن هالة! كان راقداً فاستيقظ مرتاعاً؛ لأنه بعد هذه السنين الطويلة، تذكر فجأة صوت زوجته الأولى؛ لأن الصوت يشبه الصوت، استئذان هالة ذكره باستئذان خديجة، لشبه صوتها بصوت أختها، فتذكر خديجة -رضي الله عنها-فارتاع وقام من القيلولة، فزعاً متغيراً؛ من السرور الذي حصل له لهذه المفاجأة السارة، ومن أحب شيئاً أحب ما يشبهه، وما يتعلق به. (محمد صالح المنجد).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما غِرْتُ علَى نِسَاءِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، إلَّا علَى خَدِيجَةَ وإنِّي لَمْ أُدْرِكْهَا. قالَتْ: وَكانَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ إذَا ذَبَحَ الشَّاةَ، فيَقولُ: أَرْسِلُوا بهَا إلى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ قالَتْ: فأغْضَبْتُهُ يَوْمًا، فَقُلْتُ: خَدِيجَةَ، فَقالَ: رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ إنِّي قدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا) صحيح مسلم.

وخديجة رضي الله عنها لها قدر كبير في قلب النبي ﷺ، وكان الرسول ﷺ عندما يذكر خديجة - رضي الله عنها-يكثر من ذكرها، تقول عائشة -رضي الله عنها-: "كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟" فكان ﷺ يرد عليها بقوله: إنها كانت وكانت... يعدد صفاتها: كانت فاضلة، كانت عاقلة، كانت وفية، إنها رعتني، إنها دافعت عني، إنها أنفقت على من مالها، ونحو ذلك، وفي رواية: "آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء" [رواه أحمد: 24908، وقال محققو المسند: "حديث صحيح"].

وهذا يدل على أنه ﷺ عاش معها بهذا الوفاء، وحسن العهد، وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والمعاشر، حياً وميتاً؛ لأن حسن العهد من الإيمان، كون الإنسان يكون وفياً لصاحبه الذي عاش معه السنوات الطويلة، فهذا من الإيمان. (محمد صالح المنجد).

وقد تزوجها رسول الله ﷺ قبل البعثة بخمسة عشر عاما، وبنى بها في البيت الذي كانت تسكنه بمكة، وَفيه ولدت جميع أولادها، وفيه تُوفيت، وعمرها خمس وستون سنة، في العام العاشر من البعثة، ولم يزل النبي ﷺ ساكناً فيه حتى خرج مهاجراً إلى المدينة، فأخذه عقيل بن أبي طالب.

روى مسلم في صحيحه (2426) عَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: (لَمْ يَتَزَوَّجْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى خَدِيجَةَ حَتَّى مَاتَتْ).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : "وَهَذَا مِمَّا لَا اِخْتِلَاف فِيهِ بَيْن أَهْل الْعِلْم بِالْأَخْبَارِ ، وَفِيهِ دَلِيل عَلَى عِظَمِ قَدْرهَا عِنْده وَعَلَى مَزِيد فَضْلهَا ، لِأَنَّهَا أَغْنَتْهُ عَنْ غَيْرهَا ، وَاخْتَصَّتْ بِهِ بِقَدْرِ مَا اِشْتَرَكَ فِيهِ غَيْرهَا مَرَّتَيْنِ ، لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاشَ بَعْد أَنْ تَزَوَّجَهَا ثَمَانِيَة وَثَلَاثِينَ عَامًا ، اِنْفَرَدَتْ خَدِيجَة مِنْهَا بِخَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ عَامًا وَهِيَ نَحْو الثُّلُثَيْنِ مِنْ الْمَجْمُوع ، وَمَعَ طُول الْمُدَّة فَصَانَ قَلْبهَا فِيهَا مِنْ الْغَيْرَة وَمِنْ نَكَد الضَّرَائِر الَّذِي رُبَّمَا حَصَلَ لَهُ هُوَ مِنْهُ مَا يُشَوِّش عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَهِيَ فَضِيلَة لَمْ يُشَارِكهَا فِيهَا غَيْرهَا " انتهى. (فتح الباري) "137/7

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:"ولم يتزوج في حياتها بسواها، لجلالها وعظم محلها عنده ".

والنبي ﷺ لما ماتت زوجته خديجة، أكرم صاحباتها؛ لأجل خديجة، وكان يهديهن، ويذبح الشاة، ولا ينساهن.

فقه الحكمة من موت أولاد النبي ﷺ الذكور وهم اطفال صغار:

وكل أولاد النبي ﷺ من خديجة رضي الله عنها، ما عدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية.

وأول من وُلد للرسول ﷺ من خديجة قبل البعثة (القاسم) ، وبه كان يُكنى ﷺ، ثم وَلدت له (زينب) ،ثم (رقية) ،ثم (أم كلثوم) ، ثم (فاطمة) ،ثم ولد له في الإسلام (عبد الله) وكان يلقب بالطيب والطاهر؛لأنه ولد بعد النبوة، رضي الله عنهم أجمعين.

وقد مات بنوه ﷺ وهم صغار، فمات القاسم بعد أن بلغ سناً تمكنه من المشي، ثم مات عبد الله وهو طفل صغير.

وأما بنات الرسول ﷺ فكلهن أدركن الإسلام، وأسلمن، وعشن حتى تزوجن، وكلهن متن في حياة النبي ﷺ، ما عدا فاطمة رضي الله عنها، فقد ماتت بعد وفاته ﷺ بستة أشهر.

وكان المشركون في مكة يعيّرون النبي ﷺ بانقطاع أثره؛ لوفاة أولاده الذكور، فلما مات القاسم، ثم مات بعده عبد الله قالوا: انقطع ولده، فهو أبتر، فأنزل الله سبحانه :(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ {1} فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ {2} إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) {3} (الكوثر/١-٣)

وقد شاء الله عز وجل وله الحكمة البالغة أن لا يعيش للنبي ﷺ أحد من الذكور، حتى لا يكون ذلك مدعاة لافتتان الناس بهم، وادعائهم لهم النبوة.

✉فأعطاه عزَّ وجلَّ الأولاد الذكور تكميلاً لفطرته البشرية، وقضاء لحاجات النفس الإنسانية، ولئلا يُنتقص النبي ﷺ في كمال رجولته شانئ، أو يتقول عليه متقول، فأخذهم الله في الصغر، ليكون ذلك عزاء وسلوى للذين لا يرزقون البنين، أو يرزقونهم ثم يموتون. السيرة النبوية بين المعرفة والواجب في ضـــوء القــرآن والســـنة

🔷وفوق ذلك أن ذلك لون من ألوان الابتلاء، وأشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، وأعظم من ابتلي من الخلق فصبر محمد ﷺ.عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» أخرجه الترمذي وابن ماجه.

📄مشاركة النبي ﷺ في بناء الكعبة الشريفة:

🏛الكعبة أول بيت وُضع للعبادة في الأرض كما قال سبحانه :{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ}[آل عمران/٩٦] .

📝وقد تعرضت الكعبة للسيول والعوادي التي زعزعت بنيانها، وصدعت جدرانها.

📝وقبل بعثة النبي ﷺ بخمس سنين، وعمره ﷺ خمس وثلاثون سنة، جرف مكة سيل عرم انحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة منه على الانهياروكان قد أصاب الكعبة من قَبل حريق بسبب امرأة كانت تجمرها، وكانت جدرانها رضماً من الحجارة فوق القامة، فظهر الخلل في جدرانها، فاضطرت قريش إلى تجديد بنيانها؛ حرصاً على مكانتها، وحفاظًا على حرمتها، وتعظيماً لبيت ربها.

📝وقد اتفقت قريش على أن لا يُدخلوا في بناء الكعبة من كسبهم إلا طيبا، فلا يُدخلوا فيه مالاً من ربا، ولا مهر بغي، ولا مظلمة أحدٍ من الناس.

ولما أرادت قريش هدم الكعبة لبنائها من جديد تهيبوا من ذلك، وخافوا أن يصيبهم ما أصاب أصحاب الفيل .

فقال لهم الوليد بن المغيرة المخزومي: أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ فقالوا: نريد الإصلاح، فقال: إن الله لا يهلك المصلحين، وأخذ المعول، وشرع يهدم جدار الكعبة، فقال الوليد: قوموا ساعدوني فقالوا: لا، ننتظر إلى الغد، فإن أصيب الوليد لن نهدم منها شيئا، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله صنعنا فهدمنا .

فأصبح الوليد من ليلته لم يصبه شيء، فهدموا معه، حتى إذا انتهوا إلى أساس إبراهيم ﷺ أفضوا إلى حجارة خضراء آخذ بعضها ببعض، فتركوا الأساس كما هو، وشرعوا في البناء فوقه.

وقد اشترك سادة مكة في ب أعمال الهدم والبناء، فقسموا جدران الكعبة، وجعلوا لكل قبيلة جزءا منها، فكان جهة الباب لبني عبد مناف وزهرة، وما بين الحجر الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش، وكان ظهر الكعبة جهة الغرب لبني جمح وسهم، وجهة الـحِجر لبني عبد الدار بن قصي، وبني أسد، وبني عدي، وقد شارك النبي ﷺ مع أعمامه في البناء ونقل الحجارة.

عن جَابِر بْن عَبْدِ الله رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَنْقُلُ مَعَهُمُ الحِجَارَةَ لِلْكَعْبَةِ وَعَلَيْهِ إِزَارُهُ، فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ عَمُّهُ: يَا ابْنَ أَخِي، لَوْ حَلَلْتَ إِزَارَكَ فَجَعَلْتَ عَلَى مَنْكِبَيْكَ دُونَ الحِجَارَةِ، قَالَ: فَحَلَّهُ، فَجَعَلَهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَمَا رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ عُرْيَانًا ﷺ . متفق عليه .

فلما بلغت القبائل في البنيان موضع الحجر الأسود تنازعوا فيمن يضعه في مكانه، فكل قبيلة تريد أن تحظى بهذا الشرف، وتفاقم الأمر، حتى أوشكت الحرب أن تشتعل بينهم، وقرَّب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، واستمروا على هذه الحال عدة أيام، ثم ألهم الله سبحانه وتعالى أكبر قريش سناً، وهو أبو أمية بن المغيرة المخزومي، فقال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب بني شيبة، فرضوا واجتمعوا يترقبون

أول داخل، فإذا به الصادق الأمين محمد ﷺ، كأن الله عزوجل أرسله ليخلص قريشاً من هذا الشر المستطير، فلما رأوه، قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد، فلما وصل إليهم أخبروه الخبر، فلم يلبث رسول الله ﷺ حتى أعطاهم الحل العظيم الذي قطع الله به دابر الفتنة، فبسط ﷺ رداءه، ثم أخذ الحجر فوضعه فيه، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بطرف، ثم أمرهم برفعه، فرفعوه جميعاً، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده المباركة في مكانه، ثم بنى عليه.

وبهذا الرأي السديد كان ﷺ سبباً في وقاية قريش من حرب كادت تقع بينهم وتفنيهم.

فسبحان من أرسله رحمة للعالمين، ورحمة للمتخاصمين :(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) [التوبة/١٢٨].

مكانة النبيُّ ﷺ في قومه:

وكانت النفقة الحلال قد ضاقت بقريش عن إتمام بناء البيت على قواعد إبراهيم ﷺ، فاضطروا إلى النقص منه، فبنوا عند الجزء الشمالي الذي تركوه جداراً قصيراً، للإعلام أنه من البيت، وهو ما يعرف (بالحِجْر)، ونقصوا منها قليلاً من الجهة الشرقية، وهو ما يسمى بالشاذروان، ورفعوا باب الكعبة عن الأرض، وكان ارتفاع الكعبة على عهد إبراهيم وإسماعيل تسعة أذرع، وكان لها بابان، باب شرقي يدخل منه الناس، وباب غربي يخرج منه الناس.

فلما بنتها قريش زادوا في ارتفاعها تسعة أذرع أخرى، واقتصروا على باب واحد في الجهة الشرقية،

ورفعوا بابها عن الأرض، لـيُدخلوا من شاؤا، ويمنعوا من شاؤا.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: «يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لَأَمَرْتُ بالبيت فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ وَأَلْزَقْتُهُ بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ، بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ» متفق عليه .

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: «سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الجَدْرِ أَمِنَ الْبَيْتِ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: فَمَا لَـهُمْ لَمْ يُدْخِلُوهُ فِي الْبَيْتِ؟ قَالَ: إِنَّ قَوْمَكِ قَصَّرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ .قُلْتُ: فَمَا شَأْنُ بَابِهِ مُرْتَفِعًا؟ قَالَ: فَعَلَ ذَلِكَ قَوْمُكِ لِيُدْخِلُوا مَنْ شَاءُوا وَيَمْنَعُوا مَنْ شَاؤا، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِالجَاهِلِيَّةِ فَأَخَافُ أَنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ أَنْ أُدْخِلَ الجَدْرَ فِي الْبَيْتِ، وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ بِالْأَرْضِ» متفق عليه .

وحديث تحكيم النبي ﷺ في أمر الحجر الأسود بيَّن مكانة محمد ﷺ في قومه، فقد تلقاه الجميع بالرضا والقبول، وإذا كانت حادثة الفيل أبرزت قريشاً على سائر القبائل، لحماية الله لها، فإن حادثة بناء الكعبة تتم الخطوة الثانية بتتويج محمد ﷺ على هذا الرمز.

فحادثة الفيل ميزت قريشاً ورفعتها، وحادثة بناء الكعبة ميزت محمداً ﷺ على قريش، ورفعته عليهم، وذلك كله تمهيداً للبعثة التي دنت، وأزف موعدها، وقرب إعلانها.

فسبحان من خصه ﷺ بهذه الكرامات والتشريفات، وفي هذا إشارة بليغة صريحة، وهي أن الذي حال بين إراقة الدماء التي كادت تتفجر، هو الذي سيحول غداً بين إراقة الدماء بين البشر.

والذي جمع قومه بعد نزاعهم، هو الذي سيجمع البشرية كلها غداً تحت لواء الإسلام {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [المائدة/٧].

المراجع:

❶السيرة النبوية بين المعرفة والواجب في ضـــوء القــرآن والســـنة.

❷الموسوعة التاريخية: الدرر السنية.